

موقف الجابري من الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية

الدكتور زازوي موفق

جامعة تلمسان

مقدمة:

إن الناظر في كتابات المستشرقين حول الفلسفة الإسلامية كشف أن طعنا قد قدم خدمات جليلة للفلسفة الإسلامية عجز عنها أهلها عن تقديمها والإمام لكن حسب المفكر المغربي محمد عابد الجابري فإن الغرض في باطن هذه الكتابات قد يفسح المجال للإطلاع على حقيقتها وبواعثها الأيديولوجية، هذه الفارقة الموجودة بين الظاهر والباطن تجعلنا نطرح الإشكالية التالية:

ما طبيعة الرؤية الاستشراقية للفلسفة الإسلامية؟

وما موقف الجابري منها؟

إن محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات يتيح لنا الفرصة للتعرض للنقاط

الموقف الجليل الأول من مفكري العرب من الاستشراق الفلسفي.
الاستشراق خلفياته ومكوناته الأيديولوجية.

الموقف الجليل الأول من مفكري العرب من الاستشراق:

يمكننا تحديد هذا الموقف في نقطتين أساسيتين:

الطاع عن الفلسفة أو المهمة الدفاعية.

يرى الجابري أن كثير من مفكري العرب الذين تصدوا للدراسات الفلسفية حول الفلسفة الإسلامية كان مهمهم في بادئ الأمر دفاعي يكمن في

13-الردحي محمد عبد الكريم، المعجمات العربية دراسة منهجية، دار الهدى
الطبعة الثانية، 2006، عين مليلة الجزائر، ص 60
14-فلوريان كولاس، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، مراجعة عبد السلام
رضوان، عالم المعرفة، الكويت، شعبان 1421/نوفمبر تشرين الثاني 2000، ص
331.

15-زكريا أبو حمدة، الجامع اللغوية ودورها في تعزيز اللغات في التخطيط
اللغوي، عالم الفكر، يوليو أغسطس 1982، ص 243.

16-فلوريان كولاس، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، مراجعة عبد السلام
رضوان، عالم المعرفة، الكويت، شعبان 1421/نوفمبر تشرين الثاني 2000،
ص 335.

دفع ما التصق بالعقل العربي (العقل السامي) كما اطلق عليه رينان (renaure) من كهم ومن رد الاعتبار للفلسفة الإسلامية. أما ما عدا ذلك فكان موقفهم انبهارى.

ومن التهم التي كرس في الدراسات الاستشرافية أن :

- القرآن يعنى البحث والنظر العقلي الحر.
- إن طبيعة العرب (القومية) تميل إلى البساطة والسليم بالأوهام والخرافات.
- إن الفلسفة الإسلامية هي في أصلها فلسفة يونانية مكتوبة بأحرف عربية. يقول رينان "من الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعاني أن نطلق على فلسفة اليونان المقولة إلى العربية لفظة فلسفة عربية مع أنه لم يظهر هذه الفلسفة شبه جزيرة العرب مبادئ ولا مقدمات، فكل ما في الأمر أنها مكتوبة عربية." (1)

إن العقل السامي عقل عاجز عن الإبداع والابتكار

يقول رينان : وهو أحد المستشرقين التعصبيين
 "إن العقل السامي لا طاقة له إلا على إدراك الجزئيات والمفردات منفصلا بعدا عن بعض ، أو مجتمعة في غير تناسب وإلا انسجام ولا تناسق ولا ارتباط ، العقل مابعدة وتفرق لا جمع وتأليف أما العقل الآري فعلى عكس ذلك يؤلف الأشياء بوسائط تدريجية لا يتخطى واحدا منها إلى غيره إلا على سلم متداني لا يكاد يحس التنقل فيه ، فهو عقل جمع ومنهج." (2)
 يفهم من هذا أن العقل السامي عقل بسيط ساذج غير مؤهل للفلسفة فعبقرية هذا العقل تكمن في في النفحات الدينية (الإيمان).

ويؤكد رينان renaissance الكلام عندما يقول :

أما يكون لنا أن نلمس عند الجنس السامي دروسا فلسفية ومن عجائب القدر أن هذا الجنس الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأدب بطابع القوة في أسمى رسائله لم ينتج أي أثر فلسفي خاص به وما كانت الفلسفة قط. عند الساميين إلا فلسفا حارجيا ليس فيه كبير عناء وتقليدا للفلسفة اليونانية (3).

و هذا يعني أن رينان يربط الفلسفة بالعقل على أساس أن الشعوب السامية لا تصلح بطبيعتها للنظر العقلي وإنما هي شعوب مفطورة على التدبير البساطة في اللغة والفن والشعر.

و يؤكد هذا الرأي المستشرق الألماني فولدزيرهر ، فقد ذهب إلى أن العرب لا يراعون عن إن يحملوا باستمرار مشعل العلوم والفنون وعن أن يقودوا الأمم إلى الكمال الدائم، يؤكد هذا الكلام ديور DEBORE عندما يقول "لم يكن العقل السامي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية فمرات في الفلسفة وراء الأحاديث المحكمية ، وكان هذا التفكير السامي يقوم على نظرات في شؤون الطبيعة لا يربط بينها ، ويقوم بوجه خاص على النظر في حياة الإنسان وفي مصيره لا يعرض للعقل السامي ما يعجز عن إدراكه لم يشق عليه أن يردده إلى إرادة الله لا يعجزها شيء والتي لا ندرك مداها ولا أسرارها" (4)

ومن تلامذة رينان المستشرق "ليون غوتيه" Leon Goutier الذي ذهب إلى العقلية العربية عقلية مفرقة في مقابل ما يسميه بالعقلية الجمعة أو الموحدة التي يربط الشعوب الآرية وهو يؤكد بالإضافة إلى ذلك أن الفكر الآري عقلاني تحليلي لا الفكر السامي غيبي . (5)

مثل هذه المواقف هي التي أيقضت الضمير العربي والإسلامي للشرق على العكس والاستفزازات التي قدمها هؤلاء المستشرقين التعصبيين.

ومن أهم الدراسات التي تصدت لهذه المهمة الدفاعية كتاب الشيخ مصطفى عبد الرزاق⁽⁶⁾ في كتابه "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية" وكتاب الدكتور إبراهيم مذكور⁽⁷⁾ في كتاب "الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق" وغيرها من الكتابات.

لقد كان الهدف من هذه المهمة الدفاعية إثبات أصالة الفلسفة الإسلامية ورد الاعتبار للعقل العربي على أنه عقل قادر على الإبداع والابتكار.

1/الانبيهارية:

لا يمكننا التكرار لما قدمه المستشرقون من مجهودات في نشر وتحقيق وبحث الكثير من الكتب التي كانت في طي النسيان.

يذكر لنا صاحب كتاب التمهيد، الشيخ مصطفى عبد الرزاق قولاً بلياً فيه لما يقدمه الاستشراق فيقول:

"ولو لم يقيض الله الفلاسفة الإسلام جماعة من المستشرقين وقفوا عليهم بمحوثهم ودراساتهم لأصبحنا اليوم ونحن لا نعلم من أمرهم شيئاً يذكر".

ويذكر في قول آخر معترفاً ومشيداً بدور المستشرقين وجهودهم فيقول: "أما بعد فإن الناظر فيما بذله الغربيون من مجهود في دراسة التراث الإسلامي وتاريخها لا يسمعه إلا الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم. وإذا كنا الماعنا إلى نزوات".

-من الضعف الإنساني تشوب أحياناً جهودهم في خدمة العلم فانا نرجو أن يـ

في تيقظ عواطف الخير في البشر وانساقها إلى دعوة السلم العام والزراعة المـ

والإنصاف والتسامح مراعاة للتعاون بين الناس جميعاً على خدمة العلم باعتباره تورا

لا ينبغي أن يخالط صفاءه كدر".⁽⁸⁾

ما نخلص إليه أن هؤلاء الذين اندفعوا إلى الرد على ادعاءات بعض المستشرقين كانت دوافعهم الأولى إثبات أصالة الفلسفة الإسلامية وعمره الاعتبار العقل السامي على أنه عقل إبداعي ولذلك فإن النظر إلى استشراق من الخارج هي التي دفعتهم إلى ذلك.

و إن دراساتهم إنما جاءت فقط لإبراز بعض الأخطاء التي ارتكبتها المستشرقون بدافع التسرع في الحكم لعدم القدرة والإحاطة الشاملة بمؤلفات هذه المسلمين. لكن المشكلة يبقى قائماً بالنسبة للفلسفة الإسلامية والمتمثل في غياب النقاش الأوروبية خاصة على صعيد المنهج والرؤية.

طبيعة الرؤية الاستشراقية ومكوناتها:

يرى الحجابري أن التنامل في باطن الدراسات الاستشراقية يفسح له المجال للمعرفة خفياً وخبائياً الاستشراق والمستشرقين. ولهذا يتعين أن يكون البحث على طبيعة الرؤية أو المنهج والتعرف على الخلفية التي تمكن وراءه وتبين الأسس على هذه الدراسات "الاستشراقية".

معلوم الاستشراق يتحدد على أنه توجه غير بريء فإنه يحمل في طبيعته خلفية راسخة ولذلك فإن رواد الفكر العربي الأوائل تعاملوا مع الاستشراق بمناهج مختلفة أنفسهم ولم يطرخوا بديلاً لذلك.

2/ المنهج الفيلولوجي:

منهج استخدم من قبل المستشرقين في مجال تحقيق النصوص وتقدمها وفي ما كان معموها منها.

لقد كان هدفهم البحث عن أصول للأفكار الفلسفية الأوروبية والتي مردها إلى اليونان ولم يحدث قط أن اعترفوا بفكرة ذات أصول غير أوروبية ولذلك فإن الهدف من هذا المنهج رد كل الأجزاء الفلسفية الإسلامية إلى أصول يونانية أي (أوروبية) خدمة لنهر الفكر الأوروبي الخالد كما يقول الجابري. معنيين عن ذلك الفلسفة الإسلامية عن حلقة الحضارة الانسانية ولهذا فإن الشيء الذي نخلص إليه:

هو أن الهدف من هذا المنهج : إنكار قدرة الفيلسوف المسلم على الإبداع الإتيان بالجديد وكل ما جاء به هؤلاء الفلاسفة المسلمين إنما يعود إلى اليونان ومن جهة أخرى فإنه يبرز ويكرس فكرة تفوق العرق الآري على العرق السامي .

3/ المنهج الضروي الذاتي:

هذا المنهج يعمل على رفض فكرة الشمولية التي يكرسها المنهج التاريخي القائم على فكرة التقدم وادعائه التعاطف مع الشخصيات وتجارهم حتى ولو كانوا خارج الثقافة الأوروبية كالحلاج الذي حاول ما سنيون تقمص تجربته الشمولية. فإنه حتى وإن بدأ ذلك فإنه يتمرد في حقيقة الأمر على حاضر إطاره الأوروبي فإنه في الحقيقة "يتمسك بماضيه فيعيشه رومانسيا عبر تجربة هذه العصبية التي يجد فيها تعريضا عن الروحية التي افتقدتها الثقافة الأوروبية الصرفة" (11).

ومن أهم الناهج:

1/ المنهج التاريخي:

إن الأمر الذي غاب : ب عن هؤلاء الذين بالرد على المستشرقين بالتأهم هم أصالة الفلسفة الإسلامية تناسوا أن حقيقة جوهرية تخدم صالح الأوروبيين فحواها أن المنهج الذئلا الذي اقترحوه في الفلسفة الإسلامية هو نفسا منهج الغربيين في التاريخ للفلسفة الإسلامية والأفكار المنهج معناه الاستسلام إلى ما يعرف بالمركزية الأوروبية الحجة التي تعتقد أن الفكر يعود إلى أصلاته إلى الفكر اليوناني، وما الحضارة الإسلامية قديمة إلا مجرد حلقة في التاريخ انتقال سريها إلى أوروبا متأسين دور الفلسفة في الحضارة الإسلامية مدة أربعة قرون والتي كانت تمثل الحضارة الإنسانية في غاية في ذلك الوقت.

ما يمكن قوله أن المبدأ المركزية الأوروبية التي عملت على بناء تاريخ الفلسفة الأوروبية الذي أصبح أصبح يقدم اليوم على تاريخ الفلسفة العالمي والإنساني ولذا فإن الفلسفة الإسلامية تسيء بالرغم من الباء التي قدمت عنها من المستشرقين إلا أنها تبقى في حمة حاجة إلى الدراسة من ناحية التاريخ لها أو حيث إعلامها ونظرياتها لأنها لا تأخذ حسب الجابري "الحلقة المفقودة في تاريخ الفكر الإنساني" (9).

و البحث فيها يسد نسيب الفراغ ويعيد إيمان الحقيقي لها وبذلك يتم "توظيفها لتقوية عطف الاستمرار بمتنارية في تاريخ التاريخ وتدعم الحلقة الأضداد هذا الخط، حلقة القرون الوسطى" (10).

و هذا يعني انه يتقصصها على انه صاحبها فيحاول بذلك استعادة روحها الغرب التي فقدت جراء الحضارة المادية، مما لدى الشرق . وهذا هو الاستسلام الاستلاب بعينه. إن الشيء الذي نخضع إليه من تطبيق هذا النهج يكمن في جعل الفلسفة الإشرافية هي الأصل لحقائق النبوة في الإسلام وبالتالي إبعاد كل تلك فلسفي إسلامي عن أصوله الحقيقية وربطه بأصول غير إسلامية.

خلاصة:

ما نخلص إليه من ذلك أن الرؤية الاستشرافية للفلسفة الإسلامية غير فهي ترتبط بايديولوجية أوروبية وتمثلة في المركزية الأوروبية والتي تتلخص المناهج التي اصطلحوها في دراساتهم والتي تربط الفكر الأوروبي بالفكر الإسلامي متجاوزين ورافضين لحققة من حقائق الحضارة الإنسانية وهي الفلسفة الإسلامية. ولذلك فان الجابري يفتح المجال لدراسة هذه الفلسفة من خلال ابتاع قائم على تحقيق الموضوعية والعقلانية النقدية، فيكون بذلك قادرا على رد الام لفلسفة الإسلامية وإلى الدور قدمته للحضارة الانسانية عامة. وعندها نرى في التاريخ الاسائي العالمي.

المصادر والمراجع:

الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، دار الثقافة للطباعة ، ط 1، 2005، القاهرة. نقلا عن :

Ernest renauc, averroes et l'averroïsme ,8eme édition, 1925, p7-8.

الغاري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، المركز الثقافي العربي ، ط 1، 1991، ص 70. نقلا عن :

Leon Gautier, l'esprit sémanique l'esprit aryan paris 1923, p66-67.)

3-Ernest renauc, Averroès et l'averroïsme ,8eme édition, 1925, pp7-8. محمد الرحمان بدوي ،إصالة الفكر العربي ،ديوان المطبوعات الجامعية في الجزائر ،ص 48. نقلا عن :

Leon Goutier, introduction à l'étude de la philosophie musulmanes

في نور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ، دار العربية العربية بيروت ، بدون تاريخ ، ص 53.

الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، دار الثقافة للطباعة ، ط 1، 2005، القاهرة.

أبراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ، سيزيكو للطباعة ، ط 2، بدون تاريخ ، جزء 1 ، القاهرة .

مصطفى عبد الرزاق ، المرجع نفسه ، ص 31.

الغاري ، المرجع السابق ، ص 71.

الغاري ، المرجع نفسه ، ص 72.

الغاري ، المرجع نفسه ، ص 77.